تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

أوليات الفكر الثوري عند العرب

الحلقة الثالثة

كان المفروض أن نتابع البحث عن النخبة المثقفة في العالم العربي كتتمة للحلقة الثانية من مقالات " أوليات الفكر الثوري عند العرب " ولكن سطوراً في صحيفة لبنانية نشرت بها خلاصة سريعة لمحاضرة ألقاها الاستاذ مكسيم رودنسون مساء الاثنين الواقع في 1968/12/23 في قاعة الندوة اللبنانية في بيروت فرضت علينا قفزة واسعة سريعة إلى الأمام إيثاراً للعصرية في مرافقة الأحداث من ناحية ورغبة في تحقيق أكبر قدر من الواقعية في مناقشات القضايا العربية الهامة.

عنوان المحاضرة هو : "المصير العربي وممكنات الحداقة العصرية " وفي تقديرنا أن تسجيل عدد من العبارات الهادفة والتي تبدو لنا بمثابة الصور والشواهد الأساسية في خطة الحاضر هو ضروري جداً.

قال المحاضر: "ومن ناحية أخرى فأنا لا أعطي دروساً . وليس الذنب ذنبي إذا اعتدتم استيراد الآراء من الخارج .. وأكون سعيداً إذا تمّ نقد آرائي هذه بتفكير منطقي .. ولن يدفعني الغرور إلى أن أحلّ محلكم كما فعل البعض إذ أراد أن يظهر بمظهر عربي اكثر من العرب . عليكم وحدكم ، أنتم من يهمه الأمر ، اختيار الحلول العلمية التي ترتؤونها ، ومهمتي في حدها الأقصى ، تقتصر على مساعدتكم في توضيح المسالك غير المرئية ، ومهمتكم الاختيار الأخير للمسلك الذي تريدون السير فيه".

وسنقتصر في حلقتنا اليوم على إيراد هذه الفقرة وسنرجيء مناقشة الفقرات الباقية من التلخيص المنشور بسبب من أن هذه الفقرة بالذات قد أثارت جملة من التأملات التي نرجو أن تساعدنا على توضيح جوانب هامة من قضايا الفكر الثوري عند العرب.

نحن لا نخفي إحساسنا بالحرج أمام هذه الفقرة . فقد كانت بمثابة الصدمة الكهربائية التي تزلزل الأعصاب رغم أن ما ورد فيها هو من المسلمات التي لا يكاد يختلف فيها اثنان من ذوي الرأي السديد. لقد تم استيراد المُحاضر الفرنسي إلى عاصمة عربية هي بيروت وطلب إليه باعتباره ذا موقف متعاطف مع الحق العربي أن يشارك في تشخيص الأزمة العربية من وجهة النظر الغربية التي قد يتاح لها أن تجد الرأي وتضع اليد على موطن الداء دون أن تكون مثقلة بالمخاوف والانفعالات والأزمات التي تصاحب العرب أنفسهم وهم الذين يواجهون الخطر الاسرائيلي ويشعرون دون سواهم بأن مصائرهم كأمة ذات تراث وأرض وممكنات اقتصادية هي في مهب الريح.

ولعل الأستاذ المحاضر نفسه قد أدرك غرابة الموقف الذي وجد نفسه فيه، وأعرب عن هذه الغرابة حين قال في بداية محاضرته " فالموضوع الذي نحن بصدده يتعلق شخصياً بكل منكم . وربما أُتّهمُ بالغرور ككل غريب يحاول معالجته ، لأنني سوف أتطرق الى تضحيات تتحتّم عليكم دون أن يكون لي أية مشاركة فيها".

وقد صدق الأستاذ المحاضر فيما قال، وإن كنا لا نتهمه بالغرور ولا نجد في مشاركته الفكرية غير توكيد لاستمرار أزمة الضياع في الفكر العربي الأصيل وغير تثبيت للاتهام العريض الذي وجهنا، ونوجهه الى النخبة العربية المثقفة.

ولو ترك الأمر إلينا لما أقدمنا على دعوة الأستاذ المحاضر وأمثاله ممن يظهرون بمظهر المتعاطف مع القضية العربية، ولاقتصرنا في حالة توجيه هذه الدعوة على تكريمه والإعراب لهم عن تقديرنا لمواقفهم الطيبة دون أن نجعل منهم معلمين وموجهين.

ولعل مكسيم رودنسون نفسه قد خطرت في باله خاطرة تجعل من موقفنا الذي اخترناه ضرورة ملحة بالغة . أوَلم يحاول هو شخصياً في الفقرة التي أوردناها أول هذه المقالة أن يبرىء نفسه من تهمة التعليم وإعطاء الدروس مبرراً موقفه الذي يبدو له غريباً حين قال : " وليس الذنب ذنبي إذا اعتدتم استيراد الآراء من الخارج ؟"..

نعم الذنب ليس ذنبك يا أستاذ رودنسون . فالذين دعوك للكلام وطلبوا إليك أن تقف موقف المعلم هم المذنبون . ولعلك لم توجه هذا اللوم إلى مضيفك أدباً منك والتزاماً بأصول الضيافة . فالمفروض في الضيف أن يكون مهذباً وأن يقول رأيه في مضيفه مغرقاً بكثير من المجاملة وبعبارات صيغت بحيث تنتفي فيها الزوايا الحادة وأشكال الحسم الجارح .

وفي رأينا أنك رغم محاولتك المبالغة في الاحتفاظ بمسافة كافية بينك وبين الذين استمعوا إليك، لم يسعك إلا أن تكون هذا المعلم الذي تبدو كل نصائحه وتأملاته على صورة الوخز والإيلام والتحدي الخفي الذي لا يدركه غير الذين يحتفظون بروح إنسانية أصيلة .

إن الذين وجهوا الدعوة إليك يا أستاذ رودنسون هم أنفسهم ينبوع المأساة ومجراها، والحوض الذي يمضي فيه ماء النبع، والروافد التي تصب فيه والتي تباعد بين ضفتيه في دأب واستمرار حتى يكاد يأتي على كل المجاري الموازية له ويضمها بين جوانحه.

هؤلاء هم عنوان الأزمة التي أخذت بخناق الأمة العربية منذ تكونت طبقة النخبة من المثقفين المعزولين عن جذور أمتهم والمبعدين عن تراثهم التاريخي.

لقد اعتادوا أن يستوردوا كل شيء من الخارج ابتداء من الإبرة التافهة الضئيلة وانتهاء بأحدث المنجزات التكنيكية . كما اعتادوا أن يستوردوا بطانة الإنتاج الصناعي وهي أهم شأناً وأعمق تعبيراً عن الضياع الذي يفقدون معه الجهات الأربع . هذه البطانة هي جملة الأفكار والقيم والمثل والتجارب التي صنعت لعقول غير عقولهم ولناس غير ناسهم.

هم يصرون على استيراد المنجزات التكنيكية كما يصرون على استيراد النظم والعقائد والأفكار والأخلاق. يدفعهم إلى ذلك الجهل والخوف والكسل.

ولعل أحداً لا يلومهم على استيراد المنجزات التكنيكية . فاليابان التي تحدثت عنها في محاضرتك قد فعلت مثل ذلك . ولكن اليابان وقفت عند هذا الحد فلم تتجاوزه الى إنكار نفسها وتجاهل تراثها والتمرد على حقيقتها التاريخية. أما هم فقد وجدوا في إنكار أنفسهم وتجاهل تراثهم والتمرد على حقيقتهم التاريخية ما يجنبهم النهوض بمسؤولية البناء الذاتي ويحول بينهم وبين مواجهة الفراغ الذي يشكون منه والذي يفسر هزائمهم في كل موقف من المواقف القومية والإنسانية . هم يجهلون مسؤوليتهم لأنهم صنعوا على الوجه الذي يبعدهم عن إدراك مفهوم النهضة .

وهم يخافون لأنهم في اللحظات السريعة التي تستبين لهم أبعاد هذه النهضة يشعرون بضخامة المهمة فيهربون من هذه اللحظات ويغرقون أنفسهم في لجة من الشعارات والكلمات الكبيرة والعناوين الضخمة التي تزينها صفات " العلمية والتقدمية والموضوعية والعلمانية "..

وهم يتكاسلون لأن الكسل بطبيعته تطبيق للرغبة البدائية التي يعبر عنها بعضهم بعبارة " الأقل من الجهد والأكثر من الربح والفائدة "..

فالكسل هنا يعني فقدان الحاسة الأخلاقية التي لا تنمو إلا بالرجولة ومواقف التضحية والثقة بالنفس والشجاعة في مواجهة الحقيقة مهما كانت بشعة، مع التصميم على انتهاب المسافات الزمانية والمكانية واللحاق بالأمم المتقدمة مع دفع الثمن الذي تفرضه المحاولة في سخاء لا حد له، حتى ولو كان النفس والمال هما الثمن المفروض.

إن معضلة الذين اعتادوا استيراد الآراء من الخارج هي معضلة من يجدون في الثقافة شكلاً من أشكال الحفظ ولغة من لغة الببغاء، لا نتاجاً للتجربة الحية والمغامرة في المجهول من عوالم النفس والأخلاق والعقل.

إنهم ما يزالون يعيشون بعقلية الطفل الذي يروعه في والديه سلوكهما وسلطتهما وزيهما فيظن أن تقليدهما في أشكال حياتهما الخارجية كان لتحقيق نقلته من عقله الطفل إلى عقل أبويه . ورغم أنه يصطدم في كل يوم بما يذكره بعقليته الطفولية فإنه يصر على إنكار هذه الحقيقة مستعيناً بأحلام اليقظة أو بشكل من أشكال الهلوسة المريضة .

ولو عقل المثقفون من أبناء الأمة العربية الذين تستهويهم آراء الغريب وتجاربه وأحلامه وأطماحه ومسالك تفكيره وعقائده لأدركوا أن التخطيط الاقتصادي على جلالة قدره، وأن بناء المصانع على أهميتها وأن العمران على خطورته ، خطوة هامشية أو جانبية بالنسبة للموقف الفكري الأصيل والقوة الأخلاقية والتصميم على مواجهة المسؤوليات في جد وإصرار وإيمان . كل هذا هو الذي يجعل من الاقتصاد والصناعة والعمران حقائق إنسانية حية قادرة على حماية الأمة والتمكين لها في مواطن الخوف والخطر. الأمم لا تقاتل بالمال الذي تملك وحسب . ولكنها تقاتل بروح القتال وإرادة التضحية والتعلق بحقيقتها التاريخية. وبفضل هذه الأخلاق التي تتم بها مصالحتها مع نفسها يكون سلاح المال والصناعة والاقتصاد بصورة عامة سلاحاً فاعلاً يحطم العدوان ويحمي الحريات الحقيقية .

كان من الممكن أن يقول الأستاذ المحاضر مكسيم رودنسون للذين استمعوا إليه حقيقة معضلتهم لو أنه قادر على التفكير بعقل عربي أصيل متأثر بالمأساة التي يعانيها منذ بداية النهضة العربية . وفي تقديرنا أنه أخطأ حين تحدث عن "الحلول العملية" ، إذ ليست هناك حلول كثيرة وليست هناك مسالك متعددة لاجتياز الطريق الحرج.

هناك حل عملي وحيد يتلخص في الاستغناء عن الآراء التي تصنع في الخارج وعن النظم التي توضع لمجتمع غريب وعن الرجال الأجانب الذين يحاولون أن يعيرونا عقولهم .

ومتى كانت الفلسفة الأجنبية هي التي تصنع قدر أمة من الأمم ؟ ومتى كان الدين المستورد هو الذي يبني روح أمة من الأمم ؟ الفلسفة أو الدين هما ظاهرتان ذاتيتان قبل كل شيء . إنهما حقيقتان تنبضان من الداخل تتكامل كل منهما بعد سلسلة من عمليات المعاناة وجملة من المآسي وعدد لا يحصى من مواقع النصر والهزيمة . إنهما كأدب الأديب ولحن الموسيقى وألوان الرسام . مناط العبقرية الأصيلة فيها هو التجربة الشخصية التي لا تتحقق إلا بالجرأة والطموح والتصميم على مواجهة الدنيا في غير خوف ولا وجل.

وهل كان الحق في جوهره غير حصيلة للحقيقة الحية في ذات صاحبها ؟

وهل استطاع الفيض من الكتب والنظريات الواردة من الخارج أن يصنع أمة مؤمنة وقيادة طامحة؟

الإيمان والطموح صفتان ذاتيتان وهما وحدهما اللذان يصنعان الفلسفة الأصيلة أو يلدان الدين الحافل بالأخلاق والقوة المستنيرة بالبصيرة الواعية.

لقد كانت علوم اليونان وفلسفاتهم رغم انتشارها لقرون في مناطق الشرق العربي عاجزة عن صنع أمة عربية طامحة قوية ذات حضارة . بينما أصبحت هذه الأمة حقيقة تاريخية وينبوعاً لحضارة عالمية حين نبعث من أعماقها رسالتها الدينية المتمثلة في الإسلام.

وكانت مسيحية الشرق العربي التي انتقلت إلى الغرب عاجزة عن تحقيق النهضة الأوروبية . ولم يستطع الغرب أن يصنع مصيره الحضاري إلا بفضل البصيرة الفلسفية وكانت المثل الإسلامية وتجارب العرب ونظرياتهم الأخلاقية أعجز من أن تبعث الطموح والإيمان في نفوس الملايين من الغربيين الأوروبيين .

البصيرة الفلسفية الغربية هي وحدها التي استقلت ببناء حضارة الغرب وما تزال تستقل ببنائها حتى اليوم بعد أن عزلت المسيحية عن حياتها اليومية العاملة.

ولئن كانت هناك فائدة إيجابية من الفقرة التي سجلناها في بداية هذه المقالة ففي أنها قد سلطت الضوء على الوجه الساخر الذي طالعنا في عبارة المحاضر حين قال : "وليس الذنب ذنبي إذا اعتدتم استيراد الآراء من الخارج "..

نعم يا أستاذ رودنسون ، الذنب ليس ذنبك بل هو ذنبنا نحن الذين ما نزال مصرين على استيراد آراء الغريب واستعمالها على طريقة أقنعة المساخر . فإنّ هذه الأقنعة لا تلبث أن تسقط حين ينقطع الخيط الواهي الذي يربطها بالوجوه الخائفة من ضوء الشمس.